الأستاذ محمود في الذكرى الحادية والعشرين
محاولة للتعريف بأساسيات دعوته
1. التوحيد: إطار التوجيه ونموذج الإرشاد

خالد الحاج عبد المحمود

تقوم دعوة الأستاذ محمود محمد طه، على تقديم الاسلام، كمدنية جديدة، تنفخ الروح، في الحضارة الغربية السائدة.. ودعوته تقوم على بعث أصول القرآن، التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه، وهذا يشكل عنده مفهوم السنة النبوية.. والدعوة في جملتها، تقوم على تقديم الاسلام كتتويج لجميع رسالات السماء، منذ أن بدأت تلك الرسالات.. فالإسلام، كرسالة سماوية، للبشر، مشروع بدأ، بآدم عليه السلام، وختمت نبوته بمحمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.. ولكن رسالته لم تكتمل!! وإنما ينتظر لها أن تكتمل، في هذه الدورة، من دورات الحياة، بالرسالة "الأحمدية"، والتي ما هي إلا سنة النبي الكريم، أو أصول القرآن، كما سبق أن أشرنا..

فالإسلام، من حيث التحقيق، مشروع، ليس لكماله نهاية، وإنما كماله في السرمد.. كذلك الإنسان، هو عند الأستاذ محمود، مشروع، ليس لكماله نهاية لأن كماله في السرمد..ولذلك الدعوة لتحقيق الإسلام، هي دعوة لتحقيق إنسانية الإنسان، والتي ما جاء الإسلام إلا من أجل تحقيقها، وهي، هي، خلافة الإنسان لله، في الأرض، الوارد ذكرها في القرآن.. ودعوة الأستاذ محمود، تقوم على أن موعد تحقيق الإسلام، في مستوى تحقيق، إنسانية الإنسان قد أظل، واكتملت شروطه المادية، ولم يبق إلا الأذن الإلهي به!!

والخطاب، بالدعوة، في مستوى العقيدة للمسلمين، واضح وبسيط جدا.. هو خطاب يقوم على الدعوة لبعث السنة، بتقليد النبي الكريم في عبادته، وفي ما يطاق من عادته.. فالأستاذ محمود يدعو المسلمين، ومن ورائهم الإنسانية جمعاء، الى "طريق محمد" عليه السلام.. وقد

Société Soudanaise des Etudes et Recherches en Arts, Lettres et Sciences Humaines
Sudanese Society for Research in Arts and Humanities
الجمعية السودانية للدراسات والبحوث في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية
www.sudan-forall.org

صدر كتاب بهذا الاسم، يوجز الدعوة، وقد صدرت طبعته الأولى في مارس 1966 وشعار الكتاب: "بتقليد محمد، تتوحد الأمة، ويتجدد دينها" .. فليس هنالك، رجل، هو من الكمال بحيث يستحق أن يتبع، في وقتنا الحاضر، سوى النبي صلى الله عليه وسلم.. ولا يوجد رجل، ولا يمكن أن يوجد رجل، يمكن للمسلمين أن يجمعوا على اتباعه، سوى النبي محمد عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، ولذلك ربطت البشارة النبوية، ببعث الإسلام ببعث السنة.. ومما جاء، في كتاب "طريق محمد"، قوله: "طريق محمد هو الطريق، لأنه طريق (المحبة) الخصبة، الخلاقة.. قال العزيز الحكيم عنه: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)..

بطريق محمد أصبح الدين منهاج سلوك به تساس الحياة لترقى الدرجات نحو الحياة الكاملة.. حياة الفكر، وحياةالشعور.."

وقد قام الكتاب بتقديم تعريف بمحمد عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، وعرض نموذجا موجزا لمنهجه، يمكن أن يغني السالكين، حتى تنفتح لهم آفاق الحقيقة المحمدية.. ومما جاء في الكتاب عن التبشير بالإسلام قوله: " فالإسلام عائد، ما في ذلك أدنى ريب.. وستصحب عودته الغرابة، كما صحبت بدءه.. وما ذاك إلا لأن عودته ستكون عن طريق بعث ((لا إله إلا الله)) من جديد، قوية، خلاقة، في صدور الرجال، والنساء، كأول العهد بها – باختلاف واحد، هو أن عمود التوحيد ستكون له قمة جديدة، أعلى مما كانت عليه في العهد الأول، وذلك أمر يقتضيه حكم الوقت الحاضر، كما يقتضيه محض الفضل الإلهي، المَحْكِي في الآية الكريمة: ((كل يوم هو في شأن))".. وجاء في خاتمة الكتاب قوله: "ثم أما بعد، فإن هذه دعوة إلى الله، داعيها محمد، وهاديها محمد.. وهي دعوة وجبت الاستجابة لها أمس وتجب الاستجابة لها اليوم، كما وجبت أمس، وبقدر أكبر، إذ الحجة بها اليوم ألزم منها بالأمس. ((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)) وإلا فلا.

يا أهل القرآن، لستم على شئ، حتى تقيموا القرآن. وإقامة القرآن كإقامة الصلاة، علم، وعمل بمقتضى العلم. وأول الأمر في الاقامتين، اتباع بإحسان، وبتجويد لعمل المعصوم.. أقام الله القرآن، وأقام الصلاة، وهدى إلى ذلك البصائر والأبصار، إنه سميع مجيب"

ويقول في متن الكتاب: "إن دولة القرآن قد أقبلت، وقد تهيأت البشرية لها بالمقدرة عليها وبالحاجة إليها، فليس عنها مندوحة.. وهذا يلقي على عاتق المسلمين المعاصرين واجبا ثقيلا، وهو واجب لن يحسنوا الاضطلاع به إلا إذا جعلوا محمدا، وحده إمامهم ووسيلتهم إلى الله."..
فالدعوة إذن بشارة، بدولة القرآن التي تهيأت البشرية لها.. وعن الربط بين القرآن، وبين محمد صلى الله عليه وسلم، جاء من أقوال الأستاذ مانصه: "أمران مقترنان ، ليس وراءهما مبتغى لمبتغٍ ، و ليس دونهما بلاغ لطالب: القرآن ، و حياة محمد..
أما القرآن فهو مفتاح الخلود .. و أما حياة محمد فهي مفتاح القرآن .. فمن قلد محمداً، تقليداً واعياً ، فهم مغاليق القرآن .. ومن فهم مغاليق القرآن حررعقله، وقلبه، من أسر الأوهام .. و من كان حر العقل ، و القلب ، دخل الخلود من أبوابه السبعة .
ويجب التمييز بين حياة محمد، وحديث محمد .. فأما حياته فهي السمت الذي لزمه في عاداته، وفي عباداته، من لدن بعثه، وإلى أن لحق بربه .. وأما حديثه فضربان، فما كان منه متعلقاً بسمت حياته في عاداته، و في عباداته، فهو منها، ولاحق بها .. و ما كان منه مراداً به إلى تنظيم حياة الجماعة التي بعث فيها، فهو لم يصدر عنه إلا بإعتباره إمام المسلمين، يشرع لهم من الدين ما يلائم حاجتهم الحاضرة، وما يستقيم مع مستواهم العقلي، والمادي والإجتماعي .. ولو قد فعل غير ذلك لشق عليهم، ولأعنتهم، ولأرهقهم إرهاقاً .. وما قام من تشريع حول حياة محمد فهو ليس بالشريعة الإسلامية، و إنما هو سنة النبي، و هو لا يزال صالحاً، في جملته وفي تفصيله، لأن النفس البشرية لا تزال، في وقتنا الحاضر بحاجة إليه، ولم تشب عن طوقه.
وما قام من تشريع حول حديث محمد (الذي أراد به إلى تنظيم حياة الجماعة) فهو الشريعة الإسلامية، و هو خاضع لسنة التطور ــ سنة الدثور، و التجديد ــ لأن المجموعة البشرية قد ترقت أكثر مما ترقت النفس البشرية، و قد استجدت لها أمور تحتاج إلى تشريع جديد، يستوعبها، و يحيط بها جميعاً .. هذا التشريع موجود في القرآن، و لكنه مكنون، مصون، مضنون به على غير أهله .. فمن سره أن يكون من أهله فليقلد محمداً في منهاج حياته، تقليداً واعياً، مع الثقة التامة بأنه قد أسلم نفسه إلى إرادة هادية، تجعل حياته مطابقة لروح

القرآن، و شخصيته متأثرة بشخصية أعظم رجل، و تعيد وحدة الفكر، والعمل، في وجوده ووعيه كليهما، وتخلق من ذاته المادية، و ذاته الروحية كلاً واحداً، متسقاً، قادراً عل التوحيد بين المظاهر المختلفة في الحياة..

أمران مقترنان: القرآن، وحياة محمد، هما السر في أمرين مقترنين: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" لا يستقيم الأخيران إلا بالأولين" ..

ولإكمال، بيان منهج طريق (محمد) صدر كتاب(تعلموا كيف تصلون).. الذي كانت طبعته الأولى قد صدرت في مايو 1972م

ونحن بدأنا الحديث هنا، بالتوحيد، كإطار للتوجيه ونموذج للإرشاد، لاعتبارين أساسيين، أولهما: أن التوحيد هو أساس الدين، وثانيهما: أن الحضارة البشرية اليوم، لا تتجسد في شئ، مثل ما تتجسد في في الحاجة إلى إطار للتوجيه مغاير لإطار التوجيه السائد، والذي تقوم عليه الحضارة الغربية السائدة اليوم.. و(التوحيد) كما يقدمه الأستاذ محمود محمد طه في دعوته للإسلام، هو وحده، دون غيره، ما يصلح للاستجابة لتحديات الواقع الحضاري، ويملك القدرة على حل مشكلاته، فيوجه الحضارة الوجهة، التي تحل مشكلات الإنسان المعاصر، وتستجيب لتطلعاته، وأشواقه.. وهذا ما سنعمل على بيانه.

أزمة الحضارة، أزمة إطار توجيه:

إن ما تحتاجه البشرية، اليوم، بصورة أساسية، هو إطار توجيه، ونموذج إرشاد، كلي، وشامل، تقيم عليه تصورها الأساسي للكون، وللحياة، وتسترشد به، في جميع نشاطاتها الفكرية، والحياتية، وفق أهداف وغايات كلية، تقوم على طبيعة الوجود، وعلى الطبيعة البشرية، وهذا أمر تهيأت البشرية له، بالحاجة إليه، والطاقة به، لأول مرة في تاريخها، بفضل الله، ثم بفضل التطور الهائل، الذي حققته الحضارة الغربية السائدة.. والسمة الأساسية، لإطار التوجيه المنشود، هي (الوحدة)، التي تعطي إطارا مشتركا لجميع الخلائق، بله البشر، وتجعل التمايز الفردي ممكنا، وفعالا، في إثراء الحياة البشرية، ثم هو لا يستوجب تمييزا، لا في أصل الطبيعة، ولا في إطار القانون عند البشر.. وقد أصبح الشعور بالوحدة، في المجال

(الكوزمولجي) مشعورا به بشدة، نتيجة للتطور العلمي، الذي رد كل صور المادة إلى الطاقة، ورد كل الكون المادي، إلى بداية واحدة مشتركة، وأصل واحد مشترك، كما تشير الى ذلك (نظرية الانفجار العظيم).. كما أن هنالك، في مجالات العلم المادي التجريبي شعور قوي، بأن هنالك قانون واحد يحكم الكون كله، والبحث جاري عن معرفة هذا القانون، أو النظرية التي تفسر كل شئ (نظرية كل شئ).. كما أن المحاولات الجادة جارية، في الربط والتوحيد، بين القوى الأربعة: الجاذبية، والكهرومغنطيسية، والذرية القوية، والذرية الضعيفة.. أما على مستوى البشر، فإن الوحدة على مستوى الكوكب الأرضي، قد تحققت جغرافيا، بصورة تكاد تلقي الزمان، والمكان، وهذه الوحدة تطالب بمظاهرها في الجوانب الإنسانية المختلفة.. وما (العولمة) إلا استجابة الحضارة الغربية، لمقتضيات هذه الوحدة، وتعبر عنها في في إطار قيم هذه الحضارة، وإطار التوجيه فيها.. ولكن (العولمة) كاستجابة لتحديات (الوحدة)، محاولة فاشلة، وقاصرة أشد القصور.. ولأن التصور يرجع الى طبيعة الإطار المرجعي لهذه الحضارة، فمن المستحيل أن تفضي الحضارة الغربية إلى الوحدة المنشودة، دون أن يكون هنالك تغيير أساسي فيها، وفي إطارها التوجيهي بالذات.. وهذا ما سنناقشه، في مرحلة لاحقة.. وما نقرره هنا كقضية جوهرية، بالنسبة للخلل، في جوهر إطار التوجيه للحضارة الغربية هو: على الرغم من أن الحضارة الغربية نفسها، وعن طريق العلم المادي التجريبي، توصلت إلى أن المادة، كما تظهر لحواسنا، ليست هي أصل الكون، بل هي غير موجودة أساسا، إلا بالنسبة لخداع حواسنا، وما هي في الحقيقة إلا مظهر لشئ وراءها هو (الطاقة)، على الرغم من ذلك، لا زالت الحضارة في جوهرها، حضارة مادية!! هي مادية في تصورها لطبيعة الكون، وللإنسان، وللحياة.. فالمادية، تشكل جوهر الإطار المرجعي لهذه الحضارة.. وهذا إطار لم يعد يصلح لتوجيه الواقع الحضاري الجديد الذي نعيشه اليوم، فلا بد من إطار مرجعي جديد، يتجاوز هذا الإطار، دون أن يلغي الجوانب الإيجابية فيه، وذلك بوضع المادية في إطارها، كمظهر، وكوسيلة، لما ورائها.

وأهم ما هو مطلوب، من الإطار المرجعي الجديد، أن يؤديه، هو أن يعطي الوجود معنى كليا، ويعطي الحياة، معنى كليا، وهدفا كليا.. فغياب المعنى الكلي والهدف الكلي، هو أساس

أزمة الحضارة القائمة، وهو ينعكس على كل شئ في حياة الإنسان، ويحد من قيمة أي نشاط حياتي، أو فكري.. فإذا كانت الأهداف غير محددة تحديدا، واضحا، ولا يوجد تمييز واضح بين ما هو غاية، وما هو وسيلة، لابد للحياة البشرية، وللفكر البشري، أن يكون مضطربا.. وهذا هو حال الواقع الحضاري القائم.

كل الناس، يشعرون، بمشكلة غياب المعنى، في حياتهم، على تفاوت بينهم في ذلك.. ولكن الأذكياء، من أبناء الحضارة، عبروا عن الأزمة، وحددوها بوضوح.. ونحن نورد هنا أقوال بعض هؤلآء، على سبيل المثال.. فمثلا الكاتب، والمحلل النفسي، الأمريكي إريك فروم، قال في هذا الإطار:"لم يقترب الإنسان في يوم ما من تحقيق أعز أمانيه، مثلما اقترب اليوم.. فكشوفنا العلمية، وانجازاتنا التقنية تمكننا من أن نرى رأي العين اليوم الذي تمد فيه المائدة لكل من يشتهون الطعام.. اليوم الذي يؤلف فيه الجنس البشري مجتمعا موحدا، فلا نعود نعيش في كيانات منفصلة، وقد اقتضى الأمر آلاف السنين حتى تفتحت على- هذا النحو- ملكات الإنسان الذهنية، وقدرته النامية على تنظيم المجتمع وتركيز طاقاته، تركيزا هادفا. وهكذا خلق الإنسان عالما جديدا له قوانينه الخاصة ومصيره. فإذا نظر الى ما أبدعه حق له أن يقول أن هذا الذي أبدعه، شئ حسن".. ويواصل ليقول: "ولكن ماذا يقول إذا نظر الى نفسه؟ هل اقترب من تحقيق حلم آخر للبشر، هو كمال "الإنسان"؟ الإنسان الذي يحب جاره، ويحكم بالعدل، وينطق بالصدق، محققا ماهيته، أي أن يكون صورة للإله؟.. إثارة السؤال تدعو للحرج، لأن الإجابة واضحة وضوحا اليما.. فبينما خلقنا أشياء رائعة، أخفقنا في أن نجعل من أنفسنا جديرين بهذا الجهد الخارق. فحياتنا حياة لا يسودها الإخاء والسعادة، والقناعة، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذي يقترب اقترابا خطرا من حالة الجنون" ..الى أن يقول: "ولكن هل سيسمع أطفالنا صوتا يرشدهم الى ما يتجهون، وما الهدف الذي يعيشون من أجله إنهم يشعرون على نحو ما- كما يشعر الناس جميعا- أنه لا بد للحياة من معنى، ولكن ما هو؟ هل يجدونه في التناقضات، وفي الكلام المزدوج الدلالة، وفي الاستسلام السافر االذي يلتقون به عند كل منعطف؟ إنهم مشوقون الى السعادة والعدالة والحب، والى موضوع للعبادة، فهل نحن قادرون على إشباع شوقهم؟

عاجزون نحن مثلهم، بل إننا لا نعرف الإجابة لأننا نسينا حتى أن نسأل السؤال، ونزعم أن حياتنا قائمة على أساس متين ونتجاهل ظلال القلق، والهم، والحيرة التي تغشانا فلا تريم".. ومن أهم ما قاله فروم، في هذا الصدد، مما له علاقة بالوحدة، التي نتحدث عنها، وعن تشخيص أزمة الحضارة، قوله: "وينشئ التنافر(انعدام الانسجام)، في وجود الإنسان حاجات تتجاوز حاجات أصله الحيواني تجاوزا بعيدا.. وينتج عن هذه الحاجات دافع قاهر لاستعادة الوحدة، والتوازن بينه وبين بقية الطبيعة. ويحاول استعادة هذه الوحدة والتوازن في الفكر بادئ الأمر، وذلك بتشييد صورة ذهنية جامعة all-inclusive للعالم تكون بمثابة إطار للإشارة، يستطيع منه أن يستمد الإجابة على السؤال الخاص بموقفه، وما ينبغي عليه أن يفعله. بيد أن مثل هذه المذاهب الفكرية، ليست كافية. فلو كان الإنسان عقلا مجردا عن الجسم لبلغ غايته بمذهب فكري شامل.. ولكن ما دام الإنسان كيانا له جسم وعقل، فلا مناص من أن يواجه ثنائية وجوده لا بالتفكير فحسب، بل بعملية الحياة أيضا، وبمشاعره وأفعاله. وعليه أن يسعى جاهدا الى تجربة الاتحاد والوحدة في كل مجالات وجوده لكي يصل الى توازن جديد".. راجع كتاب: "الدين والتحليل النفسي" .. هذا تصور، رائع- جوهري، ومتكامل- لمشكلات الإنسان المعاصر، وأشواقه.. ونحن على يقين تام، أن هذه التحديات والأشواق، لا تجد الاستجابة الحقيقية لها، إلا في"التوحيد" كإطار مرجعي، وهذا ما نحن بصدد بيانه.

أما البرت اسفنشير، فيقول، من كتابه:(فلسفة الحضارة) "والأمر الثاني الذي أود أن يتداوله الناس هو أمر العلاقة بين الحضارة، وبين نظريتنا في الكون، وهي علاقة لا يعيرها أحد التفاتا في الوقت الحاضر، فإن العصرالذي نعيش فيه يعوزه إدراك أهمية الظفر بنظرية في الكون، فإن الاعتقاد العام في هذه الأيام، سواء لدى المتعلمين أو غير المتعلمين، هو أن الإنسانية ستتقدم على نحو مرض تماما، دون الحاجة الى أي نظرية في الكون على الإطلاق. والواقع أن كل تقدم إنساني يتوقف على التقدم في نظرية في الكون، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته في الكون

وقتما يتهيأ لنا الوصول الى نظرية قوية وثمينة في الكون، نجد فيها اعتقادا قويا ثمينا، هنالك فقط يكون في وسعنا إيجاد حضارة جديدة" .. ويقول: "لكن الأمر الذي أرجوه قبل كل شئ– وهذا هو جوهر المسألة كلها– هو أنه ينبغي لنا أن نعترف بأن افتقارنا الكامل الآن الى أي نظرية في الكون هو المصدر الأخير لكل الكوارث وألوان الشقاء التي يعج بها العصر الحاضر، ولهذا يجب أن نعمل معا لإيجاد نظرية في الكون وفي الحياة، حتى نستطيع بذلك أن نصل الى مستوى عقلي يجعلنا متمدنين فعلا وحقا".. أما ويتهد فيقول: "إن الإنسانية تستطيع أن تزدهر في المراحل الدنيا من الحياة بواسطة لمحات بربرية، من الفكر فحسب. ولكن عندما تبلغ المدنية ذروتها، فإن عدم وجود فلسفة متسقة تكون منتشرة في الجماعات كلها، يؤدي إلى الانهيار والملل وتراخي الجهد"

بالطبع الهدف للحياة، لا يغيب عن الإنسان بصورة كلية، فالإنسان كائن هادف، لا يعمل إلا لغاية متصورة عنده.. فالغائية تدخل في حياة الإنسان، في كل كبيرة وصغيرة، ومن هنا تأتي الأهمية القصوى للمعنى، والهدف للحياة.. والهدف الذي نتحدث عنه، ونزعم أن الإطار المرجعي للحضارة الغربية لايمكن أن يعطيه، هو الهدف الكلي، الشامل، والمتسق مع طبيعة الوجود، وطبيعة الحياة، وهذا ما عناه المفكرون الذين أوردنا بعض أقوالهم.. أما الأهداف الآنية المحدودة، فلا يخلو منها أحد.. وعن كلية الهدف، يقول كولن ولسن: "إن ما يجب على الإنسان أن يفعله هو أن يحاول أن يفهم العالم، وليس العالم ما يحيط به من كون فقط، وإنما هناك كون آخر، خلف عينيه أيضا.. وكل ما يحتاج اليه الإنسان هو أن يفترض شيئا ليعمل على ضوئه.. أن يؤمن بشئ ليمنحه ذلك هدفا، والمحك الأخير لقيمة هذا الإيمان هو إلى أي حد يستطيع على ضوء مثل هذا الإيمان أن يعمل؟ لقد كان الاسكندر الأكبر يؤمن بشئ منحه قوة هادفة هائلة، إذ آمن بأنه سيحكم العالم كله، ولما حكم العالم، جلس يتساءل يائسا: ماذا أفعل الآن؟ أجل، هذا هو محك كل إيمان.. فإذا انتهى مفهوم الهدف عند حد معين، فإنه ليس هدفا حقيقيا إذن، ليس هدفا نهائيا، ولكن الدين يمنح الإنسان هذا الهدف النهائي، الهدف الذي لا ينتهي حتى ولو عاش مليونا من السنين"..

هذا ما قاله كولن ولسن، أما نحن فنقول: إن الهدف النهائي، لا ينتهي، حتى بعد الموت، ولا يكون هدفا نهائيا، حقيقيا، إلا إذا اشتمل على ما بعد الموت!!

وما تقوم عليه الحضارة الغربية، من إطار مرجعي، سواء في الفهم الذي تعطيه العلوم التجريبية، أو في العلمانية، أو مفهوم اللبرالية أو الرأسمالية، فبعيد كل البعد، عن أن يعطي مثل هذا الهدف النهائي، وهذا ما أوردنا بعض أقوال مفكري هذه الحضارة في التدليل عليه.. فالعلمانية تقوم على معرفة الكون، والانشغال بالحياة الدنيا، والدين يقوم على معرفة الله، ومعرفة الكون في الدين وسيلة الى معرفة الله، وطرفا منها.. كما أنه في الدين، الحياة الدنيا، وسيلة الى الحياة العليا – وهي حياة مطلوب أن تعاش هنا في دورة هذه الحياة– يقول تعالى عن المعرفتين: (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .. "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا" هذه هي العلمانية، وما يمكن أن يعطيه الإطار المرجعي الذي تقوم عليه الحضارة الغربية، ولا تستطيع أن تتعداه، بأي حال من الأحوال.. فالعلمانية، تقوم على توكيد الحياة الدنيا، وحدها، وعلى العقل الذي يشكله هذا التوكيد.. والحياة الدنيا، ليست هي الحياة، وإنما هي وسيلة للحياة، فبالتوكيد عليها، بل والقصور عليها، جعلت الحضارة الغربية الوسيلة في مكان الغاية، وهي في النظام الرأسمالي السائد، وظفت نشاط الإنسان كله في سبيل هذه الوسيلة، على اعتبار أنها الغاية الوحيدة لكل صور النشاط الفكري، والحياتي.. وأصبحت بذلك حياة الإنسان كلها مبنية على الإنتاج والاستهلاك..

والاستهلاك لم يعد مجرد نشاط بشري، وانما اصبح نمط حياة!! بل ونمط الحياة الأساسي الذي يوجه كل نشاط الإنسان!!

ومن أهم من عالجوا هذا الأمر من المفكرين الغربيين، إريك فروم، خصوصا، في كتابـــه: To have or to be والذي ترجم الى اللغة العربية تحت اسم (التملك والكينونة)، وأهم ما فيه هو أنه دلل بوضوح أن الملكية تشكل كل جوانب حياة إنسان الحضارة الغربية، كما تشكل قيمته عند نفسه وفي المجتمع.

قصدنا من هذا المدخل أن نوكد، أن مشكلة الحضارة الغربية، تكمن في جوهرها – إطار التوجيه فيها – الأمر الذي يقتضي إعادة نظر جذرية في هذا الإطار، وتقديم البديل له، وهذا ما يفعله الإسلام، كما يقدمه الأستاذ محمود محمد طه، وهذا ما نحن بصدده في هذه الكتابة.. فإذا استخدمنا، مصطلح "نموذج الإرشاد Paradigm "، بالصورة التي استخدمه بها عالم الفيزياء والمؤرخ "توماس كون" في كتابه عن "بنية الثورات العلمية"، نستطيع أن نقول أن الحضارة البشرية ونموذج الإرشاد فيها، دخلتا مرحلة ما يسميه كون "مرحلة الأزمة" وهي مرحلة عنده، تقتضي تغيير النموذج الإرشادي، واستبداله بنموذج إرشادي جديد يحمل افتراضات صريحة وضمنية جديدة.. فكون توصل "من خلال دراسته تاريخ العلم، واستعراضه عددا كبيرا من الأمثلة حول تطورات العلوم الطبيعية، الى أن مسار العلم لا يمضي بشكل تراكمي، وفي إتجاه واحد، بل في مسارات دائرية، حيث يمضي التقدم العلمي في أي فرع من فروع العلوم محكوما بنموذج إرشادي Paradigm يحدد مسار العلم وأدوات الدراسة، وهو ما يسمى بالعلم القياسي Normal Science إلا أن ما أن تقدم العلم، يتراكم حجم هائل من المعلومات في نطاق هذا النموذج الإرشادي، ويتراكم كذلك عدد كبير من المشكلات... وأوجه التناقض وجوانب لا يستطيع العلم السائد تفسيرها، مما يؤدي دخول العلم الى ما يسميه كون "مرحلة الأزمة" التي تؤدي الى إعادة النظر في العديد من القواعد والنظريات المستقرة وإلى حدوث "ثورة علمية" في التخصص، مما يؤدي بدوره، الى تغيير النموذج الإرشادي، وظهور نموذج إرشادي جديد يحمل افتراضات صريحة وضمنية حول طبيعة التخصص وظواهره . فهو تحول في النظر الى العالم يؤدي الى أن تبدو الموضوعات التقليدية في ضوء مغاير وقد ارتبطت في الوقت ذاته بمواصفات أخرى غير مألوفة، مما يرسم مسارا جديدا لطبيعة المشكلات موضوع الدراسة في المستقبل"– راجع د. محمد طه، كتاب "الذكاء الإنساني"– وهذا ما ينطبق على الحضارة ككل، مع اختلاف أساسي هو أن نموذج الإرشاد المطلوب، ينبغي أن تنطبق عليه المواصفات التي تحدثنا عنها، حتى تقوم الحلول التي تتبني عليه، باستيعاب طاقات الحياة المعاصرة، وتحل مشكلاتها، وتعطيها، المعنى والهدف الكلي الشامل، والذي ينسجم مع طبيعة الوجود، الروحية والمادية، ومع

طبيعة الإنسان، الروحية والمادية، أيضا.. والحضارة الغربية، بطبيعتها، يستحيل عليها أن تقدم، نموذج الإرشاد هذا المنشود.. ونحن نزعم أنه لا يتوفر، إلا في الإسلام، وحده، دون غيره، من الأديان والأفكار والفلسفات.. ولكن الحضارة الغربية، بإنجازاتها العظيمة في مجالات العلم، والتكنولوجيا، استرهبت عقول المسلمين، فانصرفوا عما عندهم من جوهر، الى ما في هذه الحضارة من بهرج، فاصبحوا يعيشون على قشور من الاسلام، وعلى قشور من الحضارة الغربية، والحضارة الغربية جوهرها، فاسد، خل عنك قشورها.

التوحيد: البعد الإنطولجي والبعد السلوكي "المنهاج"

للتوحيد في الإسلام، وجهتين، متكاملتين، لا يقوم أحدهما عند المسلم إلا بالآخر.. البعد الوجودي، التي تقوم عليه حقائق الأشياء، ويعبر عن الذات الإلهية، وهذا ما أسماه المفكرون الذين تحدثنا عنهم "نظرية في الكون"، والوجه الثاني هو الذي يقوم عليه السلوك، العملي، ويوجه الحياة والفكر عند المسلم.. فلا مجال لإدراك نظرية الإسلام في الكون، والتطور في مراقيها، إلا عن طريق المنهاج العملي الذي يقوم على التوحيد، والذي تجسده حياة النبي محمد عليه أفضل الصلاة، وأتم التسليم، والذي سبق أن أشرنا إليه.. فالتوحيد هنا صفة الموحد، بكسر الحاء – صفة الإنسان، الذي يتحقق بالتوحيد؛ وكلمة التوحيد "لا إله إلا الله " هي هادية التوحيد.. و لا إله إلا الله جاء بها جميع المرسلين، مبناها واحد، لكن المعنى – يختلف اختلافات كبيرة، يقول المعصوم "خير ما جئت به أنا والنبيون من قبلي، لا إله إلا الله" ، وهذا أمر لنا إليه عودة.

التوحيد، يقوم، في أساسه، على أن الذات الإلهية، هي أصل الوجود، ومصدره، وبها قيومية كل شئ، وإليها مصير كل شئ.. والذات الإلهية " مطلقة "، لا يلحق بها قصور، وهي فوق كل وصف، ولكن الله تعالى، بمحض فضله تنزل من صرافة ذاته، الى منازل أسملئه، ووصفاته، وأفعاله.. ثم أنزل القرآن ليحكي هذه التنزلات، لكي يعرفه عباده، فيسيروا الى عتبة ذاته..

فمن حيث الوجود الذات الإلهية هي وحدها، الموجودة بذاتها، وكل ما عداها، ومن عداها، ليس موجودا إلا بها، وليس معها.. فالأشياء جميعها، في الوجود الحادث، قيوميتها، بالله، وليست بذاتها.. وهذه الحقيقة التوحيدية الكبرى، تفيد بأن الله تعالى، هو مرجعية كل شئ في الوجود.. ومن هذه الحقيقة ينبثق كل شئ، وإليها يعود.. فالوجود أصله واحد، ومصدره واحد، والقانون الذي يحكمه واحد، لا خلاف في شئ من ذلك في الحقيقة، وكل خلاف يوجد، إنما هو خلاف من حيث التنزل، والظهور.. فالإطلاق اذن، هو أصل الوجود كله، وإليه مصيره.. وما التقيد، والمحدودية، إلا شكل من أشكال تجليات المطلق.. أما المطلق في ذاته، فيتسامى عن كل قيد، أو حد، أو تصور، وذلك لمكان كماله، فهو لا يلحق به النقص، أو العجز، في أي صورة من الصور، عن ذلك تعالى الله علوا كبيرا.. وهذا هو معنى قوله تعالى: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين).. "سبحان ربك رب العزة عما يصفون" تعني تنزه الله تعالى في ذاته عن كل وصف.. "وسلام على المرسلين" لأنهم، لم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، حسب مقتضى حكمته، في التقيد ليعرفه خلقه.. فالذات المطلقة، في إطلاقها، لا يطالها إدراك العقول، ولذلك جاءت الوصية النبوية "تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذاته فتضلوا".. وتنزلت الذات من صرافتها، الى مرتبة الاسم، ثم مرتبة الصفة، ثم مرتبة الفعل.. فبذلك ظهر الحادث من القديم، والمحدود من المطلق.. فالله تعالى: عالم مريد وقادر.. وهو تعالى، علمه قديم، وإرادته قديمة، وقدرته قديمة.. وهو تعالى لا يعلم بجارحة كأحدنا، وإنما هو يعلم بذاته، ويريد بذاته، ويقدر بذاته، وهو لم يصنع العالم من مادة سابقة، وإنما صنعه من لدنه.. فالخلق هو الإرادة الإلهية تجسدت.. وهذا هو معنى التنزل من الإطلاق، فالكون الحادث في الإسلام، يقع في ثلاثة عوالم، عالم الملكوت من أعلى، وعالم الملك من اسفل، وعالم البرزخ في الوسط.. وعالم الملكوت عالم لطائف، عالم أرواح.. وعالم الملك عالم كثائف.. عالم مادة مجسدة، تتأثر بها حواسنا.. وعالم البرزخ عالم المزج بين اللطائف والكثائف.. عالم العقول التي ركبت في الأجساد، لتحيل كثافتها الى لطافة.. وهذا هو عالم الإنسان.. والوحدة هي السلك الذي ينتظم هذه العوالم جميعها.. وهذا يقودنا الى الحديث عن وحدة الوجود

وحدة الوجود:

العوالم الثلاثة التى ذكرناها أعلاه، الاختلاف بينها اختلاف مقدار، اختلاف درجة، وليس اختلاف نوع، فمرجعية التوحيد، تمنع اختلاف النوع منعا باتا، وهذا من معانى قوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .. فالتفاوت، فى الدرجة والمقدار، أو المظهر، موجود، ولكنه ليس تفاوت نوع، ليس تفاوتا، في اصل طبائع الأشياء.. وحسب هذه النظرية التوحيدية، لا يوجد اختلاف نوع بين المادة والروح.. فالمادة روح في درجة من الذبذبة تتأثر بها حواسنا، والروح مادة في درجة من الذبذبة لا تتأثر بها حواسنا، على النحو المألوف، فالمادة والروح، مظهران لشئ واحد، الاختلاف بينهما اختلاف في الكثافة واللطافة، أو اختلاف في مستوى الذبذبة.. فصورة المادة التي نعرفها ونألفها ، والتي يقوم عليها جوهر الحضارة الغربية، كما اسلفنا، هي وهم من أوهام الحواس.. أقول صورة المادة، التى نألفها ونعرفها، وأعني صورتها، وليس حقيقتها، لأن حقيقة المادة هي إرادة الله.. ولذلك لابد من التمييز بين مظاهر الأشياء، وحقائق الأشياء.

وعلى هذا التصور، الوجود الحادث، إذن هو وحدة.. ووحدة الوجود في الإسلام تعني أنه ليس في الوجود إلا ذات الله، واسماؤه، وصفاته، وأفعاله.. ولذلك كل شئ في الوجود، له دلالة واحدة، ومعنى واحد.. وكلمة "معنى" تفيد ما يدل عليه الشئ، ويقود إليه.. فالمعنى الجامع الشامل لكل ما في الوجود، هو الله.. فكل شئ، وكل حدث، هو يشير إلى الله، ويدل عليه، بصورة من الصور، فهم من فهم، وجهل من جهل.

فالوجود إذن واحد في حقيقته، متعدد في مظاهره.. والمظاهر، هي تجلي الذات.. والذات لكمالها، لا تتجلى لذرتين في الوجود، تجلي واحد.. فالذات لا تكرر نفسها، فالتكرار في حقها نقص، وعبث، تتعالى عنه علوا كبيرا.. فالخلق جميعهم يتساوون في مبدأ، الدلالة على الله، وهذا معنى قوله تعالى: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت).. وإنما يأتي التفاوت، من حيث البعد والقرب في الدلالة.. وفي إتجاه وحدة دلالة الخلق على الخالق، يجئ قوله تعالى: (وإن من شئ إلا يسبح بحمده، ولكن لاتفقهون تسبيحهم).. قوله: "وإن من شئ

إلا يسبح بحمده" تعني ما من شئ إلا وهو دال على الله، بتسبيحه، وتنزيهه.. قوله: "ولكن لا تفقهون تسبيحهم" يعني فيما يعني، أنكم لا تدركون وحدة تسبيح الخلق، على تنوعه لأنكم مشغولون، بمظهر التعدد عن وحدة الدلالة.

بقي أن نقول، لا مجال لإثارة الشبهات حول وحدة الوجود في الإسلام، مثل شبهة الحلول والاتحاد، لأنها شبهات على نقيض مفهوم الوحدة تماما، فهي واضحة البطلان.. فالحلول يقوم على وجود شيئين، يحل أحدهما في الاخر، وكذلك الاتحاد، فهو يقتضي وجود شيئين أو أكثر، يتحد أحدهما بالآخر.. وهذه الثنائية "المانوية " هي ما ينفيه التوحيد، برد المظاهر المتعددة الى اصلها في الوحدة.. هذا التصور هو من أهم خصائص التصور الإسلامي، لطبائع الأشياء.

هذه هي القضية الأساسية في المعرفة التوحيدية: الحقيقة من حيث الوجود واحدة!! وينبني على هذه الحقيقة الكثير جدا، في الحياة، وفي المعرفة.. ويمكن أن يقال أنه بدون تصور هذه الحقيقة، والإيمان بها، لاتكون معرفة حقيقية، ولا حياة حقيقية..

وينبغي أن لا يكون هنالك، خلط بين وحدة الوجود في الإسلام، هذه التي تحدثنا عنها، ووحدة الوجود عند بعض الفلاسفة، وأصحاب الأديان الأخرى.. فالعبارة واحدة، ولكن تستخم لمعاني جد مختلفة.. بل قد تصل حد التناقض.. فبعض الذين يتحدثون عن الوجود، يعنون أن الوجود الحادث، في جملته هو الله.. وهذا في نظر الإسلام شرك غليظ، يعكس الأمور عكسا إذ يحدد المطلق، ولا يميز بين الذات، والتنزلات، فيخلط بذلك خلطا وبيلا بين الخالق والمخلوق.

ومن جوامع الكلم، التي تعبر عن حقيقة الوجود، قول الأستاذ محمود "الكون كله موجود في في كل جزء منه" !! وقوله: "ما من شئ كان أو سيكون، إلا وهو كائن الآن" !!

فالكون الحادث طبيعته روحية، ومظهره مادي.. والروح منه هي الأصل، والمادة فرع (مظهر).. وذلك لأن اللطافة هي الأصل.. "اللطيف" هو الأصل، والكثيف مظهره، هذا بالنسبة لكل شي.. فالطاقة بالنسبة للكون المادي، هي الأصل، والمادة مظهرها.. وهذا الأمر سنبني عليه كثيرا جدا.. ومما ينبني عليه، تصحيح وهم ساد الفكر البشري لفترة طويلة، ولا

يزال قائما.. هذا الوهم هو المادية، في الفكر، وفي الفلسفة، وفي الحياة.. فقد ظل الأمر السائد، في الفلسفة الى وقت قريب، أنه لا وجود إلا للمادة التي تدركها حواسنا.. وعلى الرغم من أن العلم التجريبي المادي نفسه، توصل الى خطأ وخطل هذا الرأي، منذ بداية القرن العشرين، عندما توصل انشتاين إلى نظريته في التكافؤ بين المادة والطاقة، إلا أنه عمليا، لا يزال التفكير المادي هو السائد، ولكن لم تعد له السطوة القديمة، والغرور القديم.. أما بالنسبة للحياة، فقد تكون سطوة المادية قد زادت!! على كل، لا تزال الحياة المادية، في الحضارة الغربية، هي الغاية، وكل ما سواها وسيلة إليها.

الخلق:

الخلق هو بروز المحدود، من المطلق.. أو بروز الكثيف من "اللطيف".. وهذا البروز بدأ بالتنزل الى مقام الاسم "الله".. وهومقام "الحقيقة المحمدية".. مقام الإنسان.. والحقيقة المحمدية هي أول قابل لتجلي الذات الإلهية – ونحن لنا إلى هذا الأمر عودة – فمن "اللطيف" خرج "الكثيف"، هذا في الصدور، أما في الورود، فمن الكثيف يخرج اللطيف.. فالوجود الحادث من الله صدر، وإليه يعود.

والأمر الإلهي في الخلق لا يقوم على الزمن.. فالزمن نفسه، هو من هذا "الخلق" الذي جاء به الأمر.. فالله تعالى، أوجد الوجود كله في اللازمن.. يقول تعالى: (إنا كل شئ خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).. فالأمر الذي صدر به الوجود، هو واحد في الأصل.. قوله: "وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر" يشير إلى "القضاء".. وهو يقع على مستويين: مستوى خارج الزمان، عند الذات.. ومستوى داخل الزمان– وهذا الأخير تنزل من الأول، وإليه الإشارة بالتشبيه: "كلمح بالبصر".. أماالقدر، الوارد في قوله تعالى: "إنا كل شئ خلقناه بقدر" فهو تنفيذ القضاء في الزمن، على تفاوت درجات الزمن.. فالقضاء في قمته هو منطقة وحدة، تجل وتتسامى عن أن يحويها الزمان.. أما القدر فهو تنفيذ لهذا القضاء، في الزمان والمكان.. والإيمان بالقضاء والقدر، من أركان الإيمان في الإسلام.. فالله تعالى أوجد

الوجود كله، في اللازمن، ولكن بروز هذا الوجود، في صورته الحسية، لا يتم إلا في الزمن.. فالقدر هو تنفيذ للقضاء، في الزمان والمكان، منجما وعلى مكث، ولذلك يقع في منطقة التعدد، والتي قمتها الثنائية.. فمنطقة الوحدة هي الأصل، أما منطقة الثنائية، وما يليها، في التنزل- في الظهور- فهي الفرع، وهي تنزل من الأصل اقتضته الحكمة الإلهية.. فالتنزلات، من الذات، إلى العلم، إلى الإرادة، إلى القدرة.. ومنطقتي العلم، والإرادة، تقعان في الملكوت.. فبالتنزل إلى القدرة، تم التنزل الى عالم الملك، حيث برز الخلق، وأخذ تجسيدا ماديا، بالمعنى الذي ندركه عن المادة.. وبذلك ظهرت ثنائية المادة والروح.

وظهور المادة، هو التنزل الى أسفل سافلين، من أحسن تقويم.. وبهذا التنزل، ظهر ثالوث الزمان والمكان، والحركة.. وهي ثلاثة وجوه، لشئ واحد، ولا يمكن الفصل بينهما.. وجميع صور المادة تجد التعبير عنها من خلال هذا الثالوث..وعلى هذا الثالوث، يقوم قيد الإطلاق، ومنه تبدأ المعرفة في أبسط صورها – الإدراك الحسي.. ثم تبدأ مسيرتها عبر محاولات التخفيف من قيد الثالوث، مستهدفة تجاوز القيد.. ولكن تجاوز هذا القيد لا يمكن له أن يتم في مرحلة الإدراك العقلي، فهي تنتهي عند مرحلة الشفعية – الثنائية – وتجاوز القيد لا يمكن أن يتم إلا في مرحلة الإدراك الوتري، وهو إدراك القلب – ونحن سنتعرض لهذا الأمر عندما نتحدث عن الإنسان.

والكون الحادث، في الأصل كون واحد، كان مرتتقا، ثم انفتق.. وبالفتق ظهرت صور التعدد فيه.. يقول تعالى: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا، ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شئ حي..) .. والكون، كونان، االكون الخارجي، والكون الداخلي.. الكون الخارجي، هو الكون الكبير حيث مجاميع المجرات.. والكون الداخلي، هو كون المجموعة الشمسية.. وهذا الأخير، على الرغم من أنه جزء من الكون الكبير، إلا أن له أهمية خاصة، جعلته مميزا في الإسلام، وجعلت التركيز عليه، في المرحلة.. وهذه الأهمية، ترجع إلى وجود الإنسان فيه والإنسان هو خليفة الله في حالة تكوين.

الحركة:

من أهم ما يعطيه إطار التوجيه في التوحيد، هو أن الثابت الوجودي، واحد!! هو الذات الإلهية.. أما كل ما عداها، ومن عداها، فهو متغير متحرك.. فالكون الحادث في جميع صوره، هو في حركة لا تهدأ.. ولذلك الحركة تمثل بعدا أساسيا من أبعاد هذا الكون، ولا يمكن فهمه من دونها، فهي تؤثر عليه في كل جوانبه.. فالله تعالى، هو وحده الكائن.. أما الوجود الحادث، في جملته، وفي تفاصيله، فهو ليس كائنا، وإنما هو مستمر التكوين.. ولذلك، الحركة من أهم خصائصه.. وقد بدأت الحركة ببروز المحدود من المطلق، وبدأ الزمن، وإن يك زمنا يكاد يلحق بالمطلق.. والحركة ليست "شكل وجود المادة" كما يقول الماركسيون، وإنما هي المادة نفسها (فعندما تتمركز الحركة في نقطة معينة، بسرعة تختلف عما حولها، يبرز لها تجسيد، بصورة تلفت الانتباه، فيكون ما يعرف عندنا بالمادة) .. ونحن لا نحتاج للحديث عن مفهوم نيوتن عن المكان المطلق، والزمان المطلق، فقد تجاوزه العلم، وأصبح مفهوما حتى بالنسبة للعلم لمادي التجريبي، أنه لا يوجد زمان مطلق، ولا مكان مطلق.. والحركة حسية، ومعنوية.. وفي التصور الذي يقوم على التوحيد، جميع الكائنات، من أدقها إلى أعظمها، جمادها وحيها، كل منها ذو شكل هرمي، له قمة وله قاعدة.. القمة تمثل الروح، والقاعدة تمثل الجسد.. والاختلاف بين القمة والقاعدة هو اختلاف مقدار.. والقاعدة متحركة في تطور مستمر، تطلب القمة، والقمة ليست باقية على صورة واحدة، وإنما هي أيضا متحركة، في تطور مستمر، تطلب نقطة مركز الوجود- تطلب الله- يقول تعالى: (كل يوم هو في شأن) وشأنه تعالى، هو إبداء ذاته لخلقه، ليعرفوه، ويومه هو وحدة زمنية التجلي، وهي وحدة تدق حتى تخرج من الزمن.. ولذلك، ما من شئ في الوجود الحادث، يمكن أن يكون هو نفسه، في لحظتين مختلفتين!! ..فالوجود الحادث، في جميع صوره، ومجالاته، في حركة دائمة، يطلب الله.. ولما كان الله تعالى، في ذاته مطلقا، فإن هذه الحركة، حركة سرمدية، لا انتهاء لها.. وحركة الوجود الحادث، ليس حركة في خط مستقيم، ولا هي دائرية، وإنما هي- حسب التوحيد - حركة لولبية!! الحركة الحسية لولبية.. والحركة المعنوية لولبية.. يقول تعالى: (كما بدأنا أول خلق نعيده) فالإعادة، تعني أن النهاية، تشبه البداية، ولكن لما كان الله تعالى (كل يوم هو في شأن) فإن النهاية تختلف عن البداية، فالألوهية لا تكرر

Société Soudanaise des Etudes et Recherches en Arts, Lettres et Sciences Humaines
Sudanese Society for Research in Arts and Humanities
الجمعية السودانية للدراسات والبحوث في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية
www.sudan-forall.org

نفسها، فالتكرار في حقه تعالى، نقص وعجز، يتعالى الله عنه علوا كبيرا، والتكرار في الوجود يمتنع امتناعا تاما.. فالنهاية تشبه البداية، بمعنى أنها تقابلها، كما تقابل نقطة في اللولب نقطة أدنى منها، ولكنها تختلف عنها.. فالنهاية تشبه البداية ولا تشبهها.

ولما كان الوجود، في حركته، يطلب مصدره– الله– فإن الحركة ذات طابع تطوري.. فالألوهية، في تجليها، لا تقف، ولا ترجع، ولا تكرر نفسها.. فالحركة في جملتها، دائما إلى الأمام، إلى الأعلى، حتى تظهر وكأنها تعيد نفسها، فهذه الإعادة، لا تكون إلا في إطار المفهوم اللولبي الذي تحدثنا عنه.. وطبيعة الحركة التطورية، هو ما تعبر عنه آيات القرآن العديدة، التي تتحدث عن السير إلى الله، والصيرورة، والانتهاء إليه، أو ملاقاته، وذلك مثل قوله تعالى: (وإن إلى ربك المنتهى) و (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه).. فهذه الآيات، وشبيهاتها، وهن كثر، تشير إلى طبيعة الحركة وغايتها.. والوجود الحادث في حركته، له غاية واحدة هي "الله".

وحركة الوجود، هذه اللولبية، جعلها الله تعالى، ذات سلم سباعي، تكتمل فيه الدورة بعد كل سبع درجات، لتبدأ دورة سباعية جديدة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.. وعلى هذا السلم السباعي تشير، الأطوار السبعة، وكل رموز عدد السبعة، والتي نجدها في العديد من آيات القرآن الكريم.. فالسموات سبع.، والأرضين سبع، وكذلك الأيام، وأطوار الجنين، ودرجات النفوس، ودرجات الإسلام .. ألخ

والحركة، في الوجود الحادث، تقوم على الفناء والبقاء، أو الموت والحياة، وكلاهما وجهان لشئ واحد.. فدائما، الذي يفنى، أو يموت، الجانب الكثيف الغليظ، أو الجانب الأقل استجابة لدواعي الحياة، بالنسبة للأحياء.. يقول تعالى: (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).. أو يقول: (ولا تدعو مع الله، إلها آخر، لا إله إلا هو، كل شئ هالك، إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون) لقد ذكرنا أن لكل شئ في الوجود، قاعدة وقمة، والقاعدة تمثل المادة، والقمة تمثل الروح، والاختلاف بينهما اختلاف مقدار.. فالقاعدة فانية، أي متحركة، متغيرة تطلب القمة، والقمة ليست باقية على صورة واحدة، وإنما هي أيضا متحركة– فانية – تطلب نقطة مركز الوجود.. فكلمة "هالك" أو "فان" في الآيات تعني متغير..

وعبارة "ويبقى وجه ربك" من الآية، تعني يبقى البقاء النسبي، الوجه الذي يلي الله من الأشياء، وهو قمة هرم كل شئ.. ويبقى البقاء المطلق، وجه الله المطلق – الذات–

أما في الجانب المعنوي، فما يعطيه إطار التوحيد، هو أن الحقيقة، واحدة، ومطلقة، ولكن الحق متعدد، ونسبي، ومتحرك، يطلب الحقيقة.. فالحق والباطل، الاختلاف بينهما ليس اختلاف نوع، وإنما هو اختلاف درجة.. والحقيقة لا ضد لها، في حين أن الحق ضده الباطل.. والاختلاف بين جميع الأضاد، في الديالكتيك الإسلامي، اختلاف درجة، الضدان عبارة عن وجهين لشئ واحد.

الباطل باعتبار الحقيقة– باعتبار وجهة نظر الله للوجود– لا وجود له!! وإنما وجود الباطل، وجود عقلي، يقوم على ظواهر الأشياء، وما تقوم عليه هذه الظواهر من أوهام.. فكل ما دخل الوجود، دخل بإرادة الله، ولا يمكن لشئ أن يدخل الوجود، دون هذه الإرادة.. وإرادة الله حق، لا يأتيه الباطل لا من بين يديه، ولا من خلفه.. وفي ذلك يقول تعالى، مثلا: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار) .. فالآية تقرر أولا، أن السماء والأرض، وما بينهما، مخلوق لله، وتقرر ثانيا، أن السماء، والأرض، ومابينهما، ليسا باطلا.. فالسماء والأرض، وما بينهما، حق في ذواتها، وخلقت بالحق.. فالباطل هو وجه الحق البعيد عن الحقيقة، في حين أن الحق، هو الوجه القريب من الحقيقة.. فالحق، والباطل، كلاهما متحرك– شأن أي شئ في الوجود– والحركة في جميع صورها، لها إتجاه واحد، في إطار القوانين التي ذكرناها، فهي حركة، في إتجاه مركز الوجود، لذلك هي حركة مما هو فانٍ الى ما هو باقٍ، من المادية الى الروح، من الموت الى الحياة، من الباطل إلى الحق.. يقول تعالى: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) .. هذا هو القانون الأساسي.. الباطل، زاهق، فان، متحرك يطلب الحق.. والحق نفسه، ليس باقيا على صورة واحدة، وإنما هو فان أيضا، متحرك، يطلب الحقيقة، التي هي وحدها غير المتغيرة، وكل الوجود سائر إليها.. فالحق والباطل نسبيان، فكل حق، هو حق بالنسبة لما هو دونه، وباطل بالنسبة لما هو أعلى منه.. فالحق المعين، يصبح باطلا، فيزهق، ويتحول إلى حق أكبر منه.. فالحركة بين الباطل والحق، تقع في منطقة الثنائية – منطقة العقل – والحركة

فيها حركة سرمدية.. والحق هو القانون الذي يسير الله تعالى به الوجود، يقول تعالى: (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، والذين كفروا عما أنذروا معرضون) .. ويقول: (خلق السموات والأرض تعالى عما يشركون) .. ويقول: (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون) .. فالحق هو الإرادة الإلهية، وهو قانون المعاوضة في الحقيقة.. ونحن لنا إلى ذلك عودة، ولكن لنتحدث الآن عن الإرادة الإلهية.

وحدة الفاعل:

من المبادئ الأساسية، في إطار التوجيه، في التوحيد، أنه ليس في الوجود إرادتان.. وإنما هي إرادة واحدة، هي الإرادة الإلهية.. ولقد خلصنا فيما تقدم، إلى أن (الحقيقة) من حيث الوجود واحدة.. فإذا كان لا موجود، في الحقيقة إلا الله، وكل ما عداه، ومن عداه، ليس موجودا معه، وإنما هو موجود به، فلا بد أن يكون لا فاعل، في الحقيقة، إلا الله، وكا ماعداه، ومن عداه، لا يفعل إلا به سبحانه وتعالى، ولا يمكن أن يفعل من ذاته.. فالتوحيد، يقرر أنه (لا حول، ولا قوة، إلا بالله) .. فالله تعالى، هو الفاعل الوحيد، في الحقيقة، لكبير الأشياء، ولصغيرها.. وهذا هو معنى "لا إله إلا الله" .. فهي تعني أن الإله واحد، هو الله .. وقد سبق أن تحدثنا عن التنزلات، وقلنا أن التنزل الأول إلى مرتبة الاسم، ثم الصفة، ثم الفعل.. والتنزل إلى مرتبة الاسم "الله"، وإلى مرتبة الصفة "الأحد"، وإلى مرتبة الفعل "الواحد".. فالواحد، دائما صفة الإله، فهي تعني الله في تنزله إلى مرتبة الفعل، وذلك مثل قوله تعالى: (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) أو قوله: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار) .. وقوله: (ولا تقولوا انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات، وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا) وقوله: (إلهكم إله واحد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة، قلوبهم منكرة وهم مستكبرون).. وقوله: (لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون).. والناس في عموم أحوالهم، لم ينكروا الله، وإنما أنكروا الإله، يعني أنكروا أن يكون الله هو الفاعل لكل الأشياء كبيرها و صغيرها.. فغالبية الناس، يعترفون بأن الأفعال

الكبيرة، فاعلها الله.. وأماالأفعال الصغيرة، والتي لهم فيها "وهم" مشاركة، ينسبونها إلى المخلوقات، ويذهلون عن الله.. يقول تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ليقولن الله، فأنى يؤفكون * الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، إن الله بكل شئ عليم) .. فالأعمال الكبيرة لعظمها وجلالها لا يقع لهم فيها وهم مشاركة، وعجزهم، وعجز المخلوقات الأخرى، عن الإتيان بمثلها عجز بائن.. ولكن وهم المشاركة يجئ في الأفعال الصغيرة.

فأمر وحدة الفاعل هذا، هو أمر الإسلام.. فالإسلام يعني الاستسلام لله.. وفي الحقيقة الوجود كله مسلم لله، منقاد له، يقول تعالى: (أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون).. فالوجود كله مسلم لله، خاضع لإرادته، كان، ولا يزال، ولن ينفك.. ولكن الوجود دون الإنسان غير واع بإسلامه هذا، فهو مسلم كرها.. فبظهور الإنسان، جدت مسألة أساسية، هي ظهور الإرادة الإنسانية.. فالإنسان يتوهم أنه صاحب إرادة مستقلة، بالفعل والترك.. وعلى ذلك أصبحت هنالك إرادتان: الإرادة الإلهية المحققة، والإرادة الإنسانية المتوهمة.. وظهور الإنسان، وظهور العقل، والإرادة البشرية، هو نقطة تحول، أساسية في الوجود، بل هو نقطة التحول الأساسية.. وبظهور العقل، والإرادة الإنسانية، ظهرت ثنائية (الحقيقة) و(الشريعة).. والحقيقة والشريعة هنا، يستخدمان استخداما اصطلاحيا، وهو اصطلاح مأخوذ من التصوف الإسلامي.. فالحقيقة هي الأمر كما هو عليه في الواقع، أو كما هو عند الله.. والشريعة هي الأمر كما يبدو للعقل البشري وتقوم على ظواهر الأشياء، وعلى اعتبار الإرادة البشرية..

هنالك الإسلام العام، وهو ما عليه جميع الخلائق، من إسلام لله.. وبظهور البشر، وظهور العقل المكلف، جاء الإسلام الخاص، إسلام البشر، إسلام العقول.. وهذا جاء مؤخرا جدا، وبدأ بآدم النبي، عليه السلام.. والإسلام الخاص، هو سوق البشر، من خلال عقولهم، ليسلموا لله كبقية العناصر في الوجود، ولكن طوعا وعن رضا وقناعة.. ولذلك الإسلام الخاص خطاب للعقل، ومداره كله، الإرادة البشرية "المتوهمة"، والتي يهدف إلى توجيهها وترويضها، حتى تعلم أن المريد، واحد، فتسلم له، وبذلك تصبح إرادة الإنسان، مسايرة

Société Soudanaise des Etudes et Recherches en Arts, Lettres et Sciences Humaines
Sudanese Society for Research in Arts and Humanities
الجمعية السودانية للدراسات والبحوث في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية
www.sudan-forall.org

للقانون الأساسي في الوجود، ومن إرادة الله، فتصبح إرادة حقيقية، وليست متوهمة، وتكون نافذة.. وهذه مكانة ينفرد بها الإنسان، ويتميز، على جميع خلق الله.. وستتضح أبعاد هذا القول، عندما نتحدث عن الإنسان.